الألفية مجموعة طلاسم لا تفهم إلا بعد شرحها شرحاً وافياً، ولا يفيد أحد منها إلا بعد شرح هذا الشرح حتى إذا بلغ الإنسان جوهر القاعدة وجد أنها لا تستحق شيئاً من هذا الجهد. قيل أنها سهلت العلم بالقواعد، ولكن فائدة هذا النظم تضيع بين سوء النظم وشرح الشراح، ولذلك تعددت الشروح والتقارير والحواشى. ولولا وجود الألفية لا ستطعنا أن نحتفظ من قواعد اللغة بما نكون فى حاجة إليه. والألفية ظاهرة من ظواهر الانحطاط فى علوم اللغة، وهى كذلك سبباً من أسبابه[1].

إن المنظومة النحوية وشروحها وحواشيها والتقارير التى كتبت عليها لم تحاول أن تتخلص كلية من المنهج الذى سلكه الأقدمون، بمعنى أن المرفوع ظل ثابتاً لدى كل النحاة المتأخرين، وبالتالى تأخر المجرور دائماً فى الترتيب وهى الظاهرة نفسها التى نجدها فى كتب الأقدمين.

يقول الدكتور أحمد طاهر حسنين:

«إن أحداً من هؤلاء النحاة لم يحاول أن يمس جوهر تصنيف القدماء للنحو أو نقول جوهر جدولتهم لموضوعاته، بمعنى أنه حتى الآن لم يصدر كتاب نحوى يقدم المجرور على المرفوع والمنصوب»[2].

والحقيقة أن باب الإضافة وباب الجر قدم على المنصوبات فى كتاب الواضح للزبيدى وكثير من أوجه القصور فى المختصرات فقد عولجت عند ابن هشام وغيره.

ألف ابن هشام كتاب (أوضح المسالك على ألفية ابن مالك) وهو إيضاح لألفية ابن مالك قريب المأخذ بعيد عما يجئ فى المتون المنظومة من التواء فى العبارة أو غموض فى المعنى. وقد قال فى مقدمته: «إن كتاب الخلاصة الألفية فى علم العربية كتاب صغر حجماً وغزر علماً غير أنه لإفراط الإيجاز قد كاد يعدّ من الألغاز»،

---

(١) الدكتور محمد كامل حسين – اللغة العربية المعاصرة – ص ٥٥ : ٥٦، دار المعارف بمصر – ١٩٧٦ م.

(٢) أحمد طاهر حسنين – نظرية الاكتمال اللغوى عند العرب – ص ٣٢٢.